شبهة خلق القرآن والرد عليها

د عبد الله صباح ناصر الملا(*)

مقدمـــة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وبعد

فهذه الفتنة (فتنة خلق الكتب السماوية) قديمة، ليست فقط في الإسلام، إنما في اليهودية والمسيحية، وقد انتقلت إلى الإسلاميين بعد الاختلاط الثقافي بين المسلمين والذين أسلموا من الثقافات الأخرى. أيضًا بعد الترجمة التي تمت في عهد المأمون(١) لكتب الفلسفة والمنطق، وخاصة كتب أرسطو، وقد تلقف المسلمون هذه العلوم ودرسوها وتأثروا بها.

فالبعض قبلها كل القبول، وحاول المزج بينها وبين الحقيقة الدينية، والبعض رفضها كل الرفض، ووقف على ما جاء به القرآن والسُّنَّة، ومنهم من قبلها بدود، فرفض ما يعارض الدين، وقبل ما يوافقه.

وكل المعتزلة ممن تأثروا بالفلسفة وبالثقافات الأخرى، ونظروا إلى الدين الإسلامي من هذه الوجهة الفلسفية وأوجدوا هذه الفكرة التي كانت مصدر قلق واضطراب للعالم الإسلامي آنها. وابتلي فيه الإمام أحمد بن حنبل وغيره من العلماء، ولا زالت إلى يومنا هذا تدرس وتناقش، وتطل علينا بصور مختلفة، مثل رفض السنة والتوقف عند النص القرآني، أو النظر إلى النص القرآني بعيدًا عن كونه مقدسًا، أو الدرس التاريخي للقرآن.

(*) المدرس المنتدب بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - قسم التفسير والحديث- جامعة الكويت.

(١) المأمون الخليفة: أبو العباس عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي، وُلد سنة ١٧٠هـ، ودعا إلى القول بخلق القرآن وبالغ فيها. توفي سنة ٢١٨هـ. (سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٧٢/١٠، ط. مؤسسة الرسالة- بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ت: شعيب الأرنؤوط).

وهذه المسألة ليست الوحيدة في بابها، بل ليست مستقلة بالحديث عن القرآن الكريم، وإنما تَمُتُّ بصلة أصلية إلى الصفات الإلهية، وهي- على الخصوص- صفة الكلام.

وقد وجدت صراعًا قديمًا- لا زال ممتدًا- في الصفات وهل هي عين الذات أو زائدة؟ وهل هي قديمة أو حادثة، وهل...؟

الكثير من الأسئلة التي شتت جمع المسلمين.

إذًا فتنة خلق القرآن ليست قضية تراثية تدرس في الأوراق بعيدًا عن الواقع، بل لها امتداد في قضايا كثيرة، تدور ما بين أهل التأويل، وأهل السنة.

فالبعض ينظر إلى الصفات كما جاءت في القرآن الكريم ويقولون فيها كما قال القرآن فقط، لا تبديل ولا تأويل، ولا يصرفون القول عن ظاهره، قال تعالى: چ ذ ٹ ٹچ(١).

والبعض يرى التأويل لازمًا من لوازم الشرع، وصرف اللفظ عن ظاهره من مقتضيات التنزيه.

وهكذا تباين الناس في المقاصد، ولذا كان هذا البحث ليس أكاديميًا، بل له دور فعال في واقع الفكر المعاصر.

لذا استعنت بالله- تعالى- وتوكلت عليه- سبحانه- لأكتب في هذا الموضوع، وقد قسمته إلى ثلاثة مباحث وخاتمة. وهي كالآتي:

المبحث الأول: شبهة خلق القرآن والجانب التاريخي.

ويشتمل على:

- مصدر الشبهة.
- الشبهة في العصر الأموي.

---

(١) سورة الشورى، من الآية ١١.

- الشبهة في زمن الرشيد.
- الشبهة في زمن المأمون.
- أحمد بن حنبل والفتنة.
- نص كتاب المأمون في الفتنة.

المبحث الثاني: شبهة خلق القرآن في بواكيرها بن المؤيدين والمعارضين.

ويشتمل على:

- تقرير المسألة عند المريسية.
- رأي بشر المريسي.
- الرد على بشر المريسي.
- حجج المأمون في القول بخلق القرآن.
- تقرير المسألة عند أحمد بن أبي دُؤَاد، والرد عليه.

المبحث الثالث: الآراء والأدلة في فتنة خلق القرآن الكريم بين المتوقفين والمتكلمين.

ويشتمل على:

أولاً : المتوقفون عن الخوض في هذه المسألة.

ثانيًا: الأشاعرة القائلون بقِدَم القرآن الكريم.

ثالثًا: المعتزلة القائلون بخلق القرآن.

وأتعرض فيه لأدلة هؤلاء وهؤلاء والردود، ثم أرجح ما أجده موافقًا للكتاب والسُّنَّة بإذن الله تعالى من خلال الخاتمة.

والله أسأل العون التوفيق ،،

المبحث الأول

شبهة خلق القرآن والجانب التاريخي

أولاً: مصدر القضية (شبهة خلق الكتب السماوية):

وُجدت هذه الفتنة أول ما وُجدت في اليهودية، حيث ذهب البعض إلى القول بقِدَم التوراة، وذهب البعض إلى القول بخلقها وحدوثها.

وأول من نقلها عنهم إلى الإسلام هو «لبيد بن الأعصم»(١) الذي كان يقول بخلق التوراة، وكان من أشد أعداء الإسلام، وقد أخذ عنه هذه الفكرة ابن أخته «طالوت» وكان زنديقًا أفشى الزندقة وصنّف في خلق القرآن(٢).

ثانيًا: الفتنة في العصر الأموي(٣):

أول من قال بها في العصر الأموي «الجعد بن درهم»(٤) فقد أذاع بين الناس القول بخلق القرآن، فقتله «خالد بن عبد الله القسري»(٥) يوم الأضحى بالكوفة.

وقال بعده تلميذه «الجهم بن صفوان»(٦)، فقد نفى صفة الكلام عن الله- تعالى- باعتبارها ألفاظًا وحروفًا وهي حادثة، وتنزيهًا لله- تعالى- عن الحدوث نفي هذه الصفة عنه تعالى، ويترتب على ذلك أن القرآن مخلوق.

---

(١) لبيد بن الأعصم يهودي من يهود بن زُرَيق حليف لهم وكان ساحرًا سحر النبي ق.
البداية والنهاية لابن كثير ٥/٧، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط دار هجر للطباعة والنشر، الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

(٢) تاريخ الجدل، محمد أبو زهرة، ص٢٥١، طبعة دار الفكر، الأولى. وانظر: الفرق بين الفرق للبغدادي ص٥٠، ط دار الآفاق الجديدة- بيروت، الثانية، ١٩٧٧م.

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٧/٢٥١، ط مصر. وفلسفة المتكلمين، هاري ولفسون، ١/١٣٢، ط هيئة الكتاب.

(٤) الجعد بن درهم: مؤدب مروان، ولهذا يقال له مروان الجعدي، والجعد أول من تفوه بأن الله لا يتكلم ويقال إن الجهم بن صفوان أخذ عنه مقالة خلق القرآن، وأصله من حران، قتله خالد ابن عبد الله القسري ذبحًا في حدود سنة عشرين ومائة وكان مبتدعًا ضالاً، له أخبار في الزندقة (السير ٥/٤٣٣).

(٥) خالد بن عبد الله القسري الدمشقي الأمير صدوق ولكنه ناصبي بغيض ظلوم، قال ابن معين: رجل سوء يقع في علي (ميزان الاعتدال للذهبي ٢/١٥٦).

(٦) الجهم بن صفوان، حامل لواء الجهمية وهو من أهل خراسان ظهر في المائة الثانية ويكنى أبا محرز وكان مولى لبني راسب إحدى قبائل الأزدية وكان كثير الجدال والخصومات. وقد اشتهر بأربع عقائد:=

ثالثًا: الفتنة في العصر العباسي:

كان المعتزلة(١) أصحاب الريادة في هذا الباب، وقالوا بأن الصفات عين الذات، ونفوا كونه متكلمًا، فهي صفة يخلقها الله- تعالى- في الأشياء.

ويترتب على ذلك أن القرآن خلق من خلق الله- تعالى- كأي خلق، لا يتعلق بصفة الكلام الإلهية، وإنما هو حادث، لأن الكلام أصلاً مخلوق.

رابعًا: الفتنة في زمن الرشيد:

وفي عهد الرشيد(٢) نادى بهذه الفكرة على أسس فلسفية، واستدلال ديني «بشر المريسي»(٣) وهو من أئمة المرجئة(٤)، ورأس المريسية.

وقد قال بخلق القرآن من قبل أن تعلنه المعتزلة، ويسودوا به، فقال به، فنفر منه، وبخاصة أن أباه كان يهوديًا، مما شككهم أكثر في حقيقة نواياه، أضف إلى ذلك

-١- عقيدة نفي الصفات وأخذها عنه الجهمية، ٢- عقيدة الإرجاء وأخذها عنه المرجئة، ٣- عقيدة الجبر وأخذها عنه الجبرية، ٤- عقيدة القول بفناء الجنة والنار. وهذه عقائد أربع خبيثة اشتهر بها الجهم، وقُتل سنة ١٢٨هـ، وقد تلقى عن الجعد بن درهم وقد قتله سلم بن أحوز في مرو، وكان يقول بخلق القرآن (السير ١٠/٥٢٥).

(١) المعتزلة: فرقة ضالة ظهرت في أوائل القرن الثاني الهجري وسلكت منهجًا قائمًا على اتباع الهوى في العقائد الإسلامية ولهم بدع كثيرة من أهمها: التحكم بعقولهم وأفهامهم القاصرة في الوحيين الشريفيين الكتاب والسُّنَّة، وقيل إنهم نشأوا من فريق في جيش علي ط. وقيل سموا بذلك لأنهم اعتزلوا مجلس الحسن البصري وعلى رأسهم واصل بن عطاء، وكان غالب بدعتهم وضلالهم من الكلام والفلسفة (مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله أهل الجاهلية لأبي المعالي محمود شكري الألوسي، ص١١٥، تعليق: علي بن مصطفى، ط الأولى، ١٤٢٢هـ.

(٢) هو هارون الرشيد أمير المؤمنين بن المهدي بن محمد بن المنصور القرشي الهاشمي، وُلد سنة ١٤٨هـ، وتوفي سنة ١٩٣هـ (سير أعلام النبلاء ٩/٢٨٦).

(٣) بشر المريسي: بشر بن غياث المريسي الحنفي الجهمي المرجئ إمام المريسية ورافع لواء الجهمة بعد الجهم بن صفوان، وكان أبوه يهوديًا، كفره عدد من أئمة السُّنَّة (الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب، ص٤٨، إشراف د. مانع ابن حماد الجهني، الناشر: دار الدعوة- السعودية.

(٤) وهم الذين يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا تنفع مع الكفر طاعة وزعموا أن الإيمان مجرد التصديق بالقلب، وإن لم ينطق به، وسموا بذلك نسبة إلى الإرجاء أي التأخير، لأنهم أخروا الأعمال عن الإيمان ومرتكب الكبيرة عندهم مؤمن كامل الإيمان (شرح العقيدة الواسطية، ص٢٤٦-٢٥١).

أنه عارض أشياء كثيرة في القرآن الكريم مثل: إنكار تخليد الكافر في النار، وكلام الله- تعالى- لموسى × وغير ذلك.

ولقد استتر «المريسي» مخافة أن يقتله الرشيد، وظل هكذا حتى مضى عهده وعهد الأمين(١) ثم ظهر في عهد المأمون، الذي أمن المعتزلة، وقال بأفكارهم وخلطها بالسياسة(٢).

خامسًا: الفتنة في عهد المأمون(٣):

في عهد المأمون تجد تلاحمًا واضحًا بين الفكر الاعتزالي والحركة السياسية، قد دافع المأمون كل الدفاع عن فكرة خلق القرآن، وعاونه على ذلك أكابر المعتزلة وبخاصة كبير قضاته ووزيره «أحمد بن أبي دؤاد»(٤).

وربما يكون للنشأة العلمية التي نشأها «المأمون» أثر عليه، حيث تتلمذ على يد «العلاّف»(٥) وهو من شيوخ المعتزلة.

أي أن الأثر في فكر المأمون منذ النشأة في التربية الأولى، ثم في عهده السياسي كان يحيطه الفكر الاعتزالي، لذا مال معه كل الميل حتى إنه أصدر منشورًا يقضي فيه على من يخالف في القول بخلق القرآن بالخروج عن الملة، وإعلان الحرب عليه،

---

(١) الأمين: الخليفة أبو عبد الله محمد بن الرشيد هارون بن المهدي محمد الهاشمي خلافته دون الخمس سنين، قُتل سنة ١٩٨هـ (سير أعلام النبلاء ٣٣٤/٩).

(٢) تاريخ الطبري ١١٨/٣ ط مصر، وموسوعة الفلسفة والفلاسفة ٣٠١/١، د. عبد المنعم الحفني، ط مدبولي، الأولى.

(٣) المنية والأمل للقاضي عبد الجبار، جمع ابن المرتضى، ص٢٥، ت: عصام الدين محمد علي، ط دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥م. ونشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، د. علي سامي النشار، ٣٥٣/١، ط دار المعارف- الإسكندرية.

(٤) أحمد بن أبي دؤاد الحنفي المعتزلي رأس فتنة خلق القرآن وتلميذ بشر المريسي، توفي سنة ٢٤٠هـ (الموسوعة الميسرة ص٤٨)..

(٥) أبو الهذيل العلاف محمد بن الهذيل البصري العلاف صاحب التصانيف، طال عمره وجاوز التسعين، وُلد سنة ١٣٥هـ ومات سنة ٢٢٧هـ (السير ١٧٣/١١).

وراح يتتبع رجال القضاء، والعلماء، والناس، يستخرج منهم من يقول بخلاف ذلك، أو يستخرج منهم من يخالف قول المعتزلة ويقضي عليهم بما وسعه من السجن والعزل والتعذيب.

بدأت الفتنة تشتعل في عهد المأمون، وقام نائبه في بغداد، إسحاق بن إبراهيم(١) في تنفيذ الأمر بالقوة، فمن آمن بالقضية اباه، ومن احتال وراوغ ولم يعلن الرفض بقي بالحيلة، ومن عارض وقع عليه أشد العذاب حتى الموت، فقد استشهد محمد بن نوح(٢) في قيوده.

وسبق أحمد بن حنبل(٣) قيوده للقيام والمثول بين يدي المأمون في «طرسوس» وقبل وصوله مات المأمون، ولكن الفتنة لم تمت وتولاها من بعده أخوه «المعتصم» الذي تولى الخلافة من بعده.

وكانت رحلة الإمام أحمد بن حنبل مع المعتصم الذي تولى بعد المأمون شديدة، وظلت هكذا في شدتها حتى عهد الواثق بن المعتصم، الذي قتل بعض معارضي الفكرة وصلبهم، حتى جاء المتوكل(٤) وأبطل القول، وانتصر للفقه والفقهاء، وأسقط الفتنة.

---

(١) إسحاق بن إبراهيم بن مصعب الخزاعي الأمير ولي بغداد أكثر من عشرين سنة، وكان صارمًا سائسًا حازمًا، وهو الذي كان يطلب الفقهاء ويمتحنهم بأمر المأمون، مات في آخر سنة ست وثلاثين ومائتين. (السير ١١/١٧١، العبر في خبر من غبر للذهبي، ١/٣٣٢، طبعة دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٩م، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد).

(٢) محمد بن نوح بن ميمون بن عبد الحميد العجلي، ناصر السُّنَّة، حُمل مقيدًا مع الإمام أحمد بن حنبل متزاملين فمرض ومات بعلّة بغابة في الطريق فوليه الإمام أحمد ودفنه وكان في الطريق يثبت الإمام أحمد ويشجعه، قال أحمد: ما رأيت أقوم بأمر الله منه (العبر ١/٧٠).

(٣) أحمد بن حنبل بن هلال الشيباني البغدادي كان حافظًا متقنًا فقيهًا ملازمًا للورع الخفي مواظبًا على العبادة الدائمة أغاث الله تعالى به أمة محمد ق وذاك أنه ثبت في المحنة وبذل نفسه حتى ضُرب بالسياط للقتل، فعصمه الله لأ عن الكفر وجعله علمًا يقتدى به وملجأ يلجأ إليه. (تهذيب التهذيب لابن حجر، ١/٤٩-٥١، ط دار إحياء التراث العربي- بيروت- لبنان، الثانية ١٤١٣هـ/١٩٩٣م).

(٤) المتوكل على الله الخليفة أبو الفضل جعفر بن المعتصم بالله محمد بن الرشيد هارون، وُلد سنة ٢٠٥هـ، وتوفي في سنة ٢٤٠هـ. (السير ١٢/٣٠).

وهي فتنة بالفعل لو تأملت كتاب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم في امتحان القضاة والمحدثين، لتبينت مداها فلتنظر في كتاب التاريخ للطبّري[1] حيث يقول:

«... فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة ورؤوس الضلالة، المنقوصون من التوحيد حظًا، والمخسوسون من الإيمان نصيبًا، وأوعية الجهالة، وأعلام الكذب، ولسان إبليس الناطق على أوليائه، والهائل على أعدائه من أهل دين الله، وأحق من يتهم في صدقه، وتطرح شهادته، ولا يوثق بقوله ولا عمله، فإنه لا عمل إلا بعد يقين، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام، وإخلاص التوحيد، ومن عمي عن رشده وحظه من الإيمان بالله وتوحيده، كما فيما سوى ذلك من عمله والقصد في شهادته أعمى وأضل سبيلاً، ولعمر أمين المؤمنين إن أحجى الناس بالكذب في قوله، ويخرص الباطل في شهادته، من كذب على الله ووحيه، ولم يعرف الله حقيقة معرفته، وإن أولاهم برد شهادته في حكم الله ودينه من رد شهادة الله على كتابه، وبهت حق الله بباطله، فاجمع من بحضرتك من القضاة، واقرأ عليه كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون، وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق القرآن وإحداثه، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في علمه، ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه، وخلوص توحيده ويقينه، فإذا أقروا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة، فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ومسألتهم على علمهم في القرآن، وترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق ولم يره، والامتناع من توقيعها عنده... واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله». هذا هو نص كتاب المأمون.

وقد تم ذلك وانقسم حال الناس إلى مراوغ يبدي خلاف ما يعتقده، وإلى واضح الظاهر والباطن، وهؤلاء هم الذين اكتووا بنار هذه الفتنة ومن أئمة هؤلاء الإمام أحمد ابن حنبل .

---

(١) تاريخ الطبري ١١٢/٢ وما بعدها، ومجموع الفتاوى لابن تيمية ٥٥٣/٥-٥٥٤، ط دار الرحمة.

المبحث الثاني

شبهة خلق القرآن في بواكيرها بين المؤيدين والمعارضين

أولاً: تقرير المسألة عند المريسية:

والمريسية هؤلاء هم أتباع «بشر بن غياث المريسي» وهو من دعاتها والقائم لها المناهض عنها في زمن المأمون، وما أكثر مناظراته في هذه المسألة يستدل عليها من القرآن والسُّنَّة والعقل، وعُرف بإتقانه للفقه على يد أبي يوسف صاحب أبي حنيفة، وأتقن الكلام، وانتصر لمقالة «ابن الجهم» ولم يدركه. وناظر الشافعي في الفقه، وناظر الكناني وهو عبد العزيز بن يحيى الكناني المكي في مسألة خلق القرآن، وكانت له رسالة دوَّن فيها هذه المناظرة أسماها «الحيدة»، وضمَّنها أدلة المريسي والرد عليه، ودارت المناظرة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ (١).

ثانيًا: رأي بشر المريسي:

يرى أن الله تعالى خلق القرآن كخلقه لكل كلامه، بدليل قوله (جعلناه) وهو يعني خلقناه، وليس بين الجعل والخلق من فرق، إذ هو ما اتفق عليه سائر الناس من العرب والعجم، وكل ما في سائر القرآن من «جعل» تعني «خلق» وهكذا كل ما في سائر كلام العرب من شعر وأخبار(٢).

هذا هو رأي بشر المريسي، ورأي المعتزلة من بعده.

كذلك لو ذهبت إلى الزمخشري في كشافه في نفس الآية السابقة تجده يقول: «جعلناه» بمعنى صيّرناه فعدي إلى مفعولين، أو بمعنى خلقناه فعدي إلى واحد، كقوله

---

(١) سورة الزخرف، من الآية ٣.

(٢) رسالة الحيدة، نقلاً عن تاريخ الجدل، محمد أبو زهرة، ص٢٥٩ وما بعدها، ط دار الفكر.

تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ (١) و (قرآنًا عربيًا) حال، و(لعل) مستعار لمعنى الإرادة لنلاحظ معناها ومعنى الترجي، أي خلقناه عربيًا غير أعجمي إرادة أن تعقله العرب»(٢).

ثالثًا: الرد على بشر المريسي:

وقد ردّ على بشر المريسي رجل من أهل مكة وهو «عبد العزيز بن يحيى الكناني» المكي المتوفى سنة ٢٤٠هـ وهو مشهور بتلمذته على يد الإمام الشافعي، وكانت المناظرة في محضر المأمون.

إن بشرًا من الأعاجم وهو لا يجيد كلام العرب، والقرآن أُنزل بلسان عربي مبين، وإن «جعل» في القرآن وفي لغة العرب لا تعني فقط «خلق» كما يزعم بشر، لأن الله لأ قال: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾ (٣).

فهل تعني وقد خلقتم الله عليكم كفيلاً، هذا هو الذي يعنيه بشر، ومن قصد ذلك فقد أعظم على الله الفرية، وكفر به.

أيضًا: ﴿ وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ ﴾ (٤) فلو كان معناها ولا تخلقوا نصارت: ولا تخلقوا الله، وهذا كفر، أيضًا قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا ﴾ (٥)، ﴿ وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ ﴾ (٦). كل ذلك لو فهم عن أنه «خلق» لبلغ الكفر وحل دمه.

---

(١) سورة الأنعام، من الآية ١.

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري ٤/١٤٣-١٤٦، ضبط: يوسف الحمادي، ط مكتبة مصر، الأولى.

(٣) سورة النحل، من الآية ٩١.

(٤) سورة البقرة، من الآية ٢٢٤.

(٥) سورة إبراهيم، من الآية ٣٠.

(٦) سورة الأنعام، من الآية ١٠٠.

نخلص إلى أن (جعل) ليس معناها خلق فقط، بل لها معانٍ أخر منها وهو «صيّر» ومنها «جعل» بمعنى: اعتقد، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ ﴾ (١) أي اعتقدوا والله سبحانه لم يترك الأمر هملاً يختلط على الناس، ويشتبه فيه المشتبهون، ويلحد فيه الملحدون. إنما جعل فيه أمرًا مفصّلاً.

الأول: أن «جعل» الذي هو بمعنى «خلق» جعله الله تعالى من القول المفصّل، فأنزل القرآن به مفصلاً، وهو البين الذي يغني السامع عن الحاجة لغيرها من الكلام، حيث تدل الكلمة على معناها في موضعها، كقوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ (٢)،﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ (٣) فسواء قال «خلق» أو «جعل» دلت على معنى واضح بيّن لأنها قد علمت أنه أراد بها «خلق»، فهذا من القول المفصل، وكقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ (٤) فهذا وما شابهه من المفصل الذي لا يختلط ولا يحتاج إلى بيان.

الثاني: «جعل» بمعنى «التصيير» لا بمعنى الخلق، فإن الله أنزله من القول الموصل الذي لا يدري المخاطب به حتى يصل الكلمة بكلمة بعدها حتى يعلم مرادها، وإن تركها مفصولة لم يصل إلى المراد منها، ولم يفهم لها معنى. من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٥)،﴿ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً ﴾ (٦) فلو قرأ القارئ «يا داود إنا جعلناك» ووقف، وفهم منها «يا داود إنا خلقناك» لما أدت معنى ولا أفادت، لأن المعلوم أن داود مخلوق، ولكن لو وصل فقرأ «يا داود إنا جعلناك خليفة» لأفادت معنى، ولفهم داود عليه السلام وهو المخاطب المخلوق المراد، وهو «صيّرناك خليفة»...

---

(١) سورة الزخرف، من الآية ١٩.

(٢) سورة الأنعام، من الآية ١.

(٣) سورة النحل، من الآية ٧٢.

(٤) سورة النحل، من الآية ٧٨.

(٥) سورة القصص، من الآية ٧.

(٦) سورة ص، من الآية ٢٦.

وعلى ذلك فقوله تعالى: «إنا جعلناه قرآنًا عربيًا» يدخل ضمن المعنى الثاني، أي صيَّرناه «قرآنًا عربيًا»، فهو من القول الموصل الذي ينبغي الوصل فيه ليبين المعنى، وهذا ما تعارف عليه العرب في لغتهم(١).

ولقد أقر المأمون في المجلس بشناعة ما يؤدي إليه قول بشر المريسي إلا أنه لم يقطع هذه الفتنة، بل زادها اشتعالاً في رسالته التي أرسلها إلى نائبه «إسحاق بن إبراهيم» أن يشخص إليه سبعة نفر من العلماء وفقهاء الأمة ليمتحنهم في خلق القرآن، فأرقوا مضطربين، ثم أرسل كتابًا ثانيًا سجل فيه حججًا بعينها، وأمره أن تُقرأ على القضاة والفقهاء والمحدثين، ويرى من يوافق، ومن يعارض ويكتب له بما يكون.

رابعًا: حجج المأمون في القول بخلق القرآن:

أورد المأمون حججًا في رسالته التي أراد أن يقرر بها العلماء ومنهم «أحمد بن حنبل» وهذه الحجج مر منها قريبًا شيء منها(٢).

إن كثيرًا من المسلمين اشتبه عليهم الأمر في القرآن فقالوا بقدمه فتعرضوا بذلك لدفع خلق الله والذي بان به عن خلقه، وتفرد بجلالته من ابتداع الأشياء كلها بحكمته، وإنشائها بقدرته، والتقدم عليها بأوليته، التي لا يبلغ أولاها، ولا يدرك مداها، وكل شيء دونه خلقًا من خلقه، وحدثًا هو المحدث له، وإن كان القرآن ناطقًا به، ودالاً عليه، وقاطعًا للاختلاف فيه، وضاهوا به قول النصارى في ادعائهم في عيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق، لأنه كلمة الله لأ وهذا مخالف لما قاله الله في قوله تعالى: «إنا جعلناه قرآنًا عربيًا» وتأويل ذلك: «إنا خلقناه»، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ (٣)،﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ (٤) فسوى الله تعالى ما بين

---

(١) كتاب الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن للإمام عبد العزيز بن يحيى الكناني، ص١٧٤. والإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة لابن بطة العكبري (ت٣٨٧هـ)، ٤٧٩/٥، ط دار الراية- الرياض، ١٤١٨هـ، ت: د. يوسف بن عبد الله الوابل.

(٢) يرجع في جملة الرسالة والحجج إلى تاريخ الطبري ١١٢/٢ أو ما بعدها.

(٣) سورة الأعراف، من الآية ١٨٩.

(٤) سورة الأنبياء، من الآية ٣٠.

القرآن وبين هذه الخلائق التي ذكرها في شبه الصفة، وأخبر أنه جاعله وحده. فقال: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ (١) فدلّ ذلك على إحاطة اللوح المحفوظ بالقرآن، واللوح مخلوق ولا يحاط بمخلوق.

وقد وصفه بصفات المحدثين المخلوقين، فقال: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ (٢) و ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ (٣)...

وذكر أن له أولاً وآخرًا وأنه مخلوق، فقال: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ (٤).

﴿قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ (٥)،﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ (٦)...

فمن قال بغير ذلك وقال بالقدم، فقد سهلوا على أعداء الإسلام السبيل، واعترفوا بالتبديل والإلحاد في قلوبهم، لأنهم وصفوا غير الله بما يوصف به الله تعالى وحده، وشبهوه تعالى بخلقه، ومن قال ذلك عدم حظه من الدين، ولا نصيب له من الإيمان واليقين، ولا ثقة له ولا أمانة.

هذا هو رأي المأمون، وهذه هي حجته، ولا ننكر أن المأمون كان مطلعًا على الفلسفة والكلام وأن له باعًا فيهما، إلا أن هذه الحجج هي نفسها حجج المريسي وحجج المعتزلة من بعد.

ولقد عرضت هذه الأدلة على جمع من العلماء ومنهم: أحمد بن حنبل، وكان موفه هو أن قال: «هو كلام الله ولا أزيد» فابتلي في ذلك وسجُن وحوكم في عهد

---

(١) سورة البروج، الأيتان ٢١-٢٢.

(٢) سورة القيامة، الآية ١٦.

(٣) سورة الأنبياء، من الآية ٢.

(٤) سورة الإسراء، من الآية ٨٨.

(٥) سورة هود، من الآية ١٣.

(٦) سورة فصلت، من الآية ٤٢.

المعتصم بعد المأمون، وله مناظرته التي أورد فيها أدلته على قوله بعدم خلق القرآن»(١).

خامسًا: تقرير المسألة عند أحمد بن أبي دؤاد والرد عليه:

هو من الطبعة السابعة من المعتزلة(٢)، وقد عار ابن حنبل وناظره، وكثرت المناظرات حتى إن الناس كانوا يعذبونه للمخالفة، وقد جيء ذات مرة بشيخ من أهل الشام مقيدًا وأدخل على «الواثق» وأمر بمناظرة ابن أبي دؤاد(٣)...

فقال الرجل: يا أحمد بن أبي دؤاد، إلام تدعو الناس وتدعوني؟

قال ابن أبي دؤاد: إلى القول بخلق القرآن، لأن كل ما سوى الله مخلوق.

قال الرجل: أهذه الدعوة واجبة وداخلة في عقد الدين، ومن تركها نقص إيمانه؟

قال أحمد: نعـــم.

قال الرجل: أخبرني عن رسول الله ق حين بعث هل ستر شيئًا مما بعث به؟

قال أحمد: لا.

قال الرجل: هل دعا الناس إلى ما تقول؟

فسكت أحمد بن أبي دؤاد، فقال الرجل للواثق: هذه واحدة ثم أتم.

قال الرجل: أخبرني يا أحمد عن آخر ما نزل من القرآن؟

قال أحمد: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ (٤).

---

(١) انظر: طبقات الحنابلة لأبي الحسن محمد بن أبي يعلى ١/١٦٤-١٦٧، ط السُّنَّة المحمدية، الأولى، بمصر.

(٢) المنية والأمل ص٥٥.

(٣) ذكرت هذه المناظرة في كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري ١/٨٠، ط بولاق، ١٢٧٥هـ، ط الأولى.

(٤) سورة المائدة، من الآية ٣. وهذه الآية من آخر ما نزل مقيدًا، وليست آخر ما نزل على الإطلاق.

قال أحمد: علمها.

قال الرجل: أدعا الناس إليها؟

فسكت ابن أبي دؤاد، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، مثل هذا القول لم يأمر به الله ورسوله ولا الصحابة، فمن يسعه أن يقله، لقد أمسكوا عن هذا القول، وسكتوا عنه، فلا يسعنا إلا الاتباع، والإمساك عما أمسكوا عنه.

وانتهى بذلك الحوار، وحُج أحمد بن أبي دؤاد، ولكن ظلت القضية في دائرة الجدل لم تنته، بل فتحت على الناس مقالات هم في غنى عنها.

وزادت المسألة تعقيدًا في فكر المعتزلة واشتد عليها الاستدلال والصراع مع الأشاعرة.

المبحث الثالث

الآراء والأدلة في فتنة خلق القرآن الكريم

بين المتوقفين والمتكلمين

تقـــــــديم:

لما نشطت هذه الفتنة في وقتها، أفرزت الآراء الآتية:

أولاً: قول المعتزلة: وهو أن القرآن كلام الله مخلوق، لأنهم يعتقدون أن الكلام يخلقه الله في محل.

ثانيًا: قول المعارضين: وهو أن القرآن كلام الله قديم، لأن الكلام صفة لله تعالى، لا يمكن أن تكون حادثة، وإلا قام الحادث بالقديم وهو باطل.

ثالثًا: أهل السُنَّة: وهم الذين رفضوا القول بالحدوث والقدم، واكتفوا بالوقوف عندما جاء في القرآن والسُنَّة وهو (القرآن كلام الله) وصفة من صفاته اللائكة بكماله ومنزه عن مشابهة المخلوقين.

أولاً : رأي أهل السُنَّة:

تقرير المسألة عند أحمد بن حنبل وابن تيمية:

قرر المسألة آن محاكمته بين يدي المعتصم، وكان معه من المعتزلة ابن أبي دؤاد، وبشر المريسي، فقال أحمد:

القرآن كلام الله غير مخلوق، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ﴾ (١)، وقال: ﴿ الرَّحْمَنِ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ (٢)، ولم يقل الرحمن خلق القرآن، وقال: ﴿ يس . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ (٣) ولم يقل والقرآن المخلوق.

---

(١) سورة التوبة، من الآية ٦.

(٢) سورة الرحمن، الآيتان ١-٢.

(٣) سورة يس، الآيتان ١-٢.

وكأن ابن حنبل أراد التوقف، فلم يزد على ما جاء في القرآن الكريم من وصفه كلام الله.

ولما قص الجاحظ(١) – وهو من المعتزلة وشيخ الجاحظية– وكان قد عاصر الفتنة أو دعا لها، قال: إن أحمد بن حنبل كان يحاوره ابن أبي دؤاد، فقال له:

- أليس لا شيء إلا قديم، وحديث؟
- قال أحمد: نعم.
- قال ابن أبي دؤاد: أو ليس القرآن شيئًا؟
- قال أحمد: نعم.
- قال ابن أبي دؤاد: أو ليس لا قديم إلا الله؟
- قال أحمد: نعم.
- قال ابن أبي دؤاد: فالقرآن إذًا حديث؟
- قال أحمد: ليس أنا بمتكلم.

تقرير ابن تيمية:

ويقرر ابن تيمية(٢) في هذه المسألة موافقًا أحمد بن حنبل فيقول: إن الذين ناظروا الإمام أحمد / في القرآن، وكانوا لا يعرفون للمحدث معنى إلا المخلوق المنفصل، فعلى هذا الاصطلاح لا يجوز عند أهل السُّنَّة أن يقال: إن القرآن محدث، بل من قال: إنه محدث، فقد قال: إنه مخلوق.

---

(١) انظر: ابن حنبل للأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي ص١٢-١٤، دار القومية– مصر. وانظر: إسلام بلا مذاهب، د. مصطفى الشكعة، ص٤٧٩، ط مكتبة الأسرة، ٢٠٠٥. وكذلك: مجموع الفتاوى لابن تيمية ٥/٥٥٣-٥٥٧.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٥/٥٣٢ وما بعدها.

وأهل السُّنَّة يتفقون على أن القرآن ليس بمخلوق منفصل، وأنه كلام الله القائم بذاته، وأنه تعالى يتكلم بمشيئته وقدرته، قال بذلك أحمد بن حنبل، والبخاري، وابن المبارك، وابن خزيمة، والدارمي، وابن أبي شيبة، ولم يقل أحد منهم إن القرآن قديم.

تقرير ابن تيمية لحجة المعارض:

يقرر ابن تيمية حجة القائلين بحدوث كلام الله تعالى، وأنه مخلوق منفصل بائن عنه، ويحتجون بأنه لو كان له كلام قديم، أو كلام غير مخلوق لزم قدم العالم على الأصل الذي أصلوه.

فإما أن يكون العالم مخلوقًا أو قديمًا، والثاني كفر ظاهر، معلوم فساده بالشرع والعقل، وإذا كان العالم مخلوقًا محدثًا بعد إن لم يكن، لم يبق قديم إلا الله وحده، ولو كان العالم قديمًا لزم أن يكون مع الله قديم آخر. كذلك (الكلام) إن كان قائمًا بالله- تعالى- لزم دوام الحوادث، ولزم أن تكون قائمة بذاته تعالى، وإن كان منفصلاً عنه لزم وجود المخلوق (القرآن) في الأزل، وهذا قول بقدم العالم، ويتعارض مع ثبوت حدوث العالم.

الرد عليهـــم:

هذه الفتنة امتحن الناس بها، وكان من الذين ثبتوا على الحق الإمام أحمد بن حنبل، ثبته الله وجعله إمامًا للسنة، وصار علمًا يهتدي به من أراد الحق، فمن وافقه كان سنيًا، ومن خالفه كان بدعيًا. وقد ثبت أحمد على أن القرآن كلام الله غير مخلوق.

وقد ناظروا أحمد بن حنبل فلم يأتوا بحجة من القرآن ولا من السُّنَّة ولا من أثر، وإنما بدعة ابتدعوها وأرادوا إلزام الناس بها ومعاقبة من مخالفهم، وهذا مخالف للحق؛ لأن الناس لا يلزمهم إلا ما ألزمهم به الله ورسوله.

ولقد اشتهر أمر هؤلاء وأنهم معطلة ويريدون تعطيل الصفات حيث يقولون: إن الله تعالى لا يُرى ولا علم له ولا قدرة وليس فوق العرش... إلى غير ذلك من أقوال الجهمية(١) النفاة، والمعتزلة. ولما اشتهروا بذلك قامت الفرق بالرد عليهم من أهل الحديث والكلام.

ولما رجع الأشعري(٢) عن الاعتزال، وأسس طائفة تُنسب إليه بيَّن مِنْ تناقض أقوال المعتزلة وفسادها ما لم يبينه غيره حتى جعلهم في قَمْعِ السِّمْسِمَةَ(٣)، إلا أنهم- الأشاعرة وغيرهم- قالوا إن القرآن قديم، لكن المتفق عليه عند أهل السُّنَّة، أن القرآن كلام الله غير مخلوق، ولم يلزم الله- تعالى- الناس بغير ذلك. ولا يجوز إلزامهم بغير ما ألزمهم به الله تعالى ورسوله(٤).

ثانيًا: شبهة خلق القرآن عند المتكلمين فيما بين القائلين بالحدوث والقدم:

أ - المعــتزلة. ب - الأشاعــرة.

أولاً: جذور المسألة في القرآن الكريم عند المتكلمين فيها:

وردت الآيات دالة على أن الله تعالى متكلم ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾(٥) ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ ﴾(٦). و ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾(٧).

---

(١) الجهمية: نسبة إلى جهم بن صفوان، وهم من الجبرية الخالصة وافقوا المعتزلة في نفس الصفات الأزلية، وزادوا عليهم (لمعة الاعتقاد ٣٢/١ لابن قدامة المقدسي، طبعة المملكة العربية السعودية- وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف، ط سنة ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

(٢) الأشعري: أبو الحسن علي بن إسماعيل إمام المتكلمين، وُلد سنة ٢٦٠هـ، وتوفي سنة ٣٢٤هـ. (السير ٨٥/١٥).

(٣) يعني هزمهم هزيمة منكرة وكسرهم وحجزهم. انظر: شرح قصيدة ابن القيم لأحمد بن إبراهيم ابن عيسى، ط المكتب الإسلامي- بيروت، الثالثة ١٤٠٦هـ.

(٤) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٥٣٢/٥-٥٥٦.

(٥) سورة النساء، من الآية ١٦٤.

(٦) سورة النحل، من الآية ٤٠.

(٧) سورة الكهف، من الآية ١٠٩.

وهكذا تعددت النصوص التي تقول بكلام الله- تعالى-.

ووقفت كل فرقة موقفها تجاه المسألة، حتى يحولوا دون مشابهة الحق للخلق، إرادة لتنزيهه تعالى عن المماثلة، وذهبوا لتحقيق ذلك كل مذهب، وامتطوا الصعب والذلول، فصارت القضية إلى أبعد من تفسير كلامه تعالى وتأويله، بل تحولت إلى صراع بين علماء المسلمين، ولنبدأ الآن بإيراد صفة الكلام أولاً.

كـــلام الله تعالى:

١- رأي المعتزلة:

يذكر «القاضي عبد الجبار»(١) وهو من شيوخ الاعتزال في كتابه «المحيط» أن كلام الله- تعالى- هو المسموع المكون من حروف وأصوات، والكلام هو ما يحصل من الحروف المعقولة، وله نظام مخصوص، إذًا هناك علاقة ما بين الصوت والكلام، فكلاهما كائن بالآخر، ولا يكون كلام دون صوت ولا العكس، ولو صح وجود الكلام دون صوت لصح وجود الصوت دون الكلام، لكن الحاصل أن الصوت المقطع هو كلام، وبما أن الصوت لا يبقى بعد حصوله، حيث يتلاشى بعد وقت النطق به، إذًا الكلام أيضًا، فيأخذ حكم الصوت.

وبما أن «المتكلم» هو من فعل الكلام لا من قام به، فإن الله سبحانه متصف بالكلام لكن الكلام لا يقوم بذاته بل يخلقه الله- تعالى- في شجرة أو سواها، لأن الكلام حادث لا أزلي، وإن كان معتقد البعض بأزليته يستند على أن الله-تعالى- «حي أزلي» فوجب أن يكون «كلامه» كذلك أزليًا، فهذا مردود، لأن الحياة وإن كانت شرطًا للكلام إلا أنها غير ملازمة له، فقد يوجد حي لا يتكلم، فلا يلزم الكلام لوجود الحياة، وإن كان اللازم الحياة لتحقق الكلام(٢).

---

(١) القاضي عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار العلامة المتكلم شيخ المعتزلة، صاحب تصانيف كثيرة مات في ذي القعدة سنة ١٤١٥هـ (السير ١٧/٢٤٤).

(٢) المحيط بالتكليف للقاضي عبد الجبار، ص٣٠٦-٣١٢، ت: عمر السيد عزمي، مراجعة: د. أحمد الأهواني، ط الدار المصرية للتأليف والترجمة.

إذًا كلام الله- تعالى- حادث مخلوق، سواء أكان في جسم، أو شجرة، أم النار، أم نحو ذلك مما يشاء الله- تعالى-.

٢- الأشاعرة:

يذهب الأشاعرة إلى أن الله- تعالى- متكلم، وقد تواتر القول بذلك عن الأنبياء في القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية الصحيحة، قال تعالى: ﴿ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾(١) و ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ﴾ (٢) و ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ﴾ (٣) و ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ (٤).

وما جاء في السُّنَّة الصحيحة ما رواه البخاري في صحيحه قال: حدثنا سليمان ابن حرب، قال: حدثنا شعبة عن عمرو(٥) عن أبي وائل عن أبي موسى ﷺ قال: «جاء رجل(٦) إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل لِيُرَى مكانُهُ، فمن في سبيل الله؟ قال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»(٧).

---

(١) سورة البقرة، من الآية ٧٥.

(٢) سورة يونس، من الآية ٦٤.

(٣) سورة التوبة، من الآية ٦.

(٤) سورة الكهف، من الآية ١٠٩.

(٥) عمرو بن مرة.

(٦) فُسرَ في بعض الروايات أنه: لاحق بن ضميرة الباهلي.

(٧) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، ٦/٣٣-٣٤، ط المكتبة السلفية، الثالثة، ١٤٠٧هـ. والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، ١/٢٣١، ح(١٨١٠)، ط. دار طوق النجاة، الأولى، ١٤٢٢هـ. وصحيح مسلم ٣/١٥١٢، ح(١٩٠٤)، ط دار إحياء التراث العربي- بيروت، ت: محمد فؤاد عبد الباقي.

وقد ثبت صدق أخبار الأنبياء بدلالة المعجزة من غير توقف على إخبار الله تعالى عن صدقهم بطريق التكلم حتى لا يلزم الدور(١).

والعقل يؤكد ذلك بدليل أن عدم التكلم ممن يصح اتصافه بالكلام نقص، لأن الحي العالم، القادر، يصح منه الكلام وعدم اتصافه بذلك نقص، ولا خفاء في أن المتكلم أكمل من غيره، ويمتنع أن يكون المخلوق أكمل من الخالق(٢).

يتضح من هذا أن الكلام عند الأشاعرة صفة أزلية قائمة بذات الله تعالى منافية للسكون والآفة- كما في الخرس والطفولة- هو بها آمرٌ ناهٍ، مخبرٌ، وغير ذلك، يدل عليها بالعبارة، أو الكتابة أو الإشارة، فإذا عبّر عنها باللغة العربية فهي القرآن الكريم، وباللغة السريانية فالإنجيل، وبالعبرانية فالتوراة. وهنا إثبات لصفة الكلام على أنها صفة لله- تعالى- لا أنه موجد لها كما تقول المعتزلة، فكلام الله إذًا- على رأي الأشاعرة- صفة له، وكل ما كان كذلك فهو قديم، فكلامه- تعالى- قديم(٣).

تحرير موطن النزاع:

في كلام الله- تعالى- هل هو صفة قائمة بذاته؟ أم أن الكلام صفة لله يخلقها في أي شيء؟ وعلى الأول تكون صفة أزلية قديمة قائمة بذاته تعالى، أما على الثاني فهي حادثة يخلقها الله في الأشياء.

---

(١) الدور: هو أن يتوالى عروض العلية والمعلولية لا إلى نهاية، بأن يكون كل ما هو معروض للعلية معروضًا للمعلولية، فإن كانت المعروضات متناهية فهو الدور بمرتبة إن كان اثنين، وبمراتب إن كانت المعروضات فوق اثنين فهو التسلسل (مذكرة التوحيد لعبد الرزاق عفيفي، ص١٢، ب: مسألة في وجوب الوجود، ط وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف- المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ، الأولى.

(٢) شرح المقاصد للتفتازاني، ٣/١٠٥-١٠٦، تقديم: إبراهيم شمس الدين، ط دار الكتب العلمية، الأولى.

(٣) شرح المواقف للايجي، ٨/١٠٢، ط دار الكتب العلمية- بيروت، الأولى.

بيـــان ذلـــك:

يرى المعتزلة: أن كلام الله محدث مخلوق، ويقسم «أبو الهذيل العلاف» وهو من الطبقة السادسة من طبقات المعتزلة(١) كلام الله لأ قسمين، إلى ما يحتاج إلى محل، وما لا يحتاج إلى محل، فقوله تعالى «كن» حادث لا في محل، وسائر كلامه حادث في جسم من الأجسام كالأمر والنهي والاستخبار، فأمر التكوين حادث لا في محل، أما أمر التكليف فهي حادثة في جسم ومحل(٢).

ويرى الأشاعرة والماتريدية: أن الكلام ليس من جنس الأصوات والحروف بل هو صفة أزلية قائمة بذاته تعالى يدل عليها بالعبارة والكتابة والإشارة، فكلامه تعالى النفسي قديم.

وهذا الرأي القائل بقدم صفة الكلام وأنها من الصفات القائمة بذاته تعالى مما قال به الحنابلة إلا أنهم قالوا بأن الكلام الحسي أيضًا قديم(٣).

وقالت الكرامية(٤)(٥) أن المنتظم من الحروف المسموعة من حدوثه، قائم بذاته تعالى، وأنه قول الله لا كلامه، وإنما كلامه هو قدرته تعالى على التكلم وهو قديم، أما قوله فهو حادث لا مُحدث، والفرق بينهما أن الحادث- عندهم- هو كل ما له ابتداء إن كان قائمًا بالذات فهو حادث بالقدرة غير محدث، والمحدث هو المباين للذات، المحدث بقوله «كن» لا بالقدرة.

---

(١) المنية والأمل للقاضي عبد الجبار، ص٤٣، جمع أحمد بن المرتضي، تحقيق: د. عصام الدين محمد علي، ط دار المعرفة الجامعية.

(٢) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار، ص٤٤٠، القاهرة، ١٩٦٥م.

(٣) تقريب المرام لعبد القادر الشنترجي، ١٤١/٢، ط المطبعة الأميرية. وانظر: تبصرة الأدلة للنسفي، ص٢٥٩ وما بعدها، ط المعهد الفرنسي، تحقيق: خلود سلامة.

(٤) تقريب المرام ١٤٢/٢.

(٥) الكرامية: هم أصحاب أبي عبد الله محمد بن كرام وكان ممن يثبت الصفات إلا أنه ينتهي إلى التجسم والتشبيه. لمعة الاعتقاد لابن قدامة المقدسي، ص٣٠.

... وهنا يصل الكلام إلى القرآن بصفته من كلام الله تعالى الذي أوحاه إلى نبيه ق، وهل هو مما تكلم الله تعالى به، أم هو مما خلقه وأوجده في اللوح المحفوظ؟ وما الذي يترتب على القول بأحدهما؟

القائلون بالحدوث:

قالت بذلك المعتزلة- على اختلاف بينهم(١) وأجمعوا على حدوث كلام الله تعالى وأنه غير قديم، وأن كلام الله قائم بمحل لا بالله، وأن الكلام هو اللفظي المسموع لا النفسي كما يزعم الأشاعرة.

ولهم أدلة على ذلك:

كما يذكرها القاضي عبد الجبار، في كتابه «المغني» وكتابه «شرح الأصول الخمسة» حيث يبدأ بذكر آراء المعارضين، فيذكر رأي الحشوية الذين ذهبوا إلى القول بقدم القرآن حتى المتلو في المحاريب، المكتو في المصاحف كل ذلك قديم غير مخلوق ولا محدث، وقدمه مع قدم الباري جل شأنه. ثم يذكر رأي «الكلابية».

---

(١) اختلفوا في الكلام الإلهي إلى ست فرق:

١- أن كلام الله حادث، جسم، محسوس، محدود، يوجد في مكان.

٢- أن كلام الله حادث، عرض، حركة، جسم، صوت مقطع من مسموعات، وهو فعل الله وخلقه، والإنسان بقراءته ينفعل عن هذا الفعل الإلهي، ويستحيل أن يكون كلام الله في كل مكان، بل في مكان واحد محدد، ورأس هذا القول النظّام.

٣- كلام الله حادث، يمكن أن يوجد في أماكن متعددة في وقت احد، وهو مخلوق لله تعالى، ورأس هذا القول العلّاف.

٤- فرقة يرأسها جعفر بن حرب وأكثر البغدادين قالوا: كلام الله عرض مخلوق، لا يوجد في مكانين في وقت واحد، يخلقه الله في مكان لا ينتقل منه إلى غيره.

٥- أصحاب معمر يقولون: القرآن عرض، ولذا محال أن يكون كلام الله، لأنه لا يفعل العرض، وهو فعل المكان الذي يسمع منه، فالإنسان يفعله بالقراءة.

٦- القرآن مخلوق وأنه عرض يوجد في أماكن متعددة، كما يقول الإسكافي.

راجع فيما سبق: مقالات الإسلاميين للأشعري، ٢/٢٤٥-٢٤٦، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط النهضة المصرية، ١٩٥٤م.

ويقولون: إن كلام الله أزلي قديم قائم بذاته تعالى، وكلام الله واحد هو التوراة، والإنجيل والقرآن، وأن هذا الذي نتلوه ونسمعه ما هو إلا حكاية كلام الله تعالى.

ثم يذكر رأي «الأشعرية».

ويقولون كرأي الكُلابية إلا أنه قال بأن المسموع عبارة كلام الله- تعالى- حتى لا يتورط في أن الحكاية يجب أن يكون من جنس المحلَى، فقال بحدوث هذا المتلو والمسموع باعتباره أصواتًا وكلامًا، لكن القرآن- الكلام النفسي- قديم.

تقرير القاضي لرأي المعتزلة:

أما مذهب المعتزلة، فهو «أن القرآن كلام الله تعالى، ووحيه وهو مخلوق محدث، أنزله الله على نبيه ليكون علمًا ودالاً على نبوته ق وليكون دلالة لنا في معرفة الحلال والحرام، واستوجب منا بذلك الشكر والحمد.

وعلى ذلك فهذا الذي نتلوه ونسمعه اليوم وإن لم يكن محدثًا من جهة الله- تعالى- فهو مضاف إليه على الحقيقة، كما يضاف ما ننشده اليوم من قصيدة امرئ القيس إليه على الحقيقة، وإن لم يكن محدثًا لها من جهته الآن.

وبهذا يكون القرآن الكريم- وهو صفة من صفاته تعالى وهو الكلام- مخلوق محدث، وأنه لا يمكن أن يكون أزليًا، ويورد القاضي أدلته على ذلك.

أدلة المعتزلة على خلق القرآن:

قالوا: لو كان القرآن قديمًا لوجب أن يكون الأمر والنهي والخبر والاستخبار أيضًا أزليًا، وهذا محال للآتي:

أولاً: لو كان الأمر والنهي قديمين، وهما من الخالق وهو قديم، لزم أن يكون المأمور قديمًا أيضًا، وهذا يتنافى مع كونه كل ما سوى الله حادث، ولزم تعدد القدماء.

ولو قلنا: لم لا يكون الأمر قديمًا، والآمر قديمًا، والمأمور حادثًا، قياسًا على العلم، فالعلم الإلهي قديم، والمعلومات حادثة.

والرد على هذا:

أن العلم لا يقتضي وجود المعلوم حال العلم، فقد يكون العلم لما سيكون بحيث هي قابلة للوجود وليست موجودة بالفعل، أما الأمر فهو خطاب يقتضي ضرورة وجود المخاطب الذي يتلقى الأمر والنهي، بل لا يسمى الأمر أمرًا والنهي نهيًا إلا إذا وُجد من يلقي إليه الأمر ويقصد به وهو المأمور، فهناك تلازم بين الأمر والمأمور في الوجود.

ثانيًا: لا يمكن أن يكون الكلام قديمًا، لأنه «لا يجوز أن يكون- تعالى- متكلمًا، على أن كونه متكلمًا للنفس فرع على إثباته متكلمًا، وقد دل ذلك على حدوث الكلام من جهته، فكيف يقال إنه للنفس.

ثالثًا: أن الكلام لا يكون إلا حروفًا منطوقة، وأصواتًا مقطوعة، وقد ثبت فيمن هذا حاله أنه محدث لجواز العدم عليه، فإذا صح كلامه- تعالى- من جنس هذا الكلام فيجب استحالة قدمه، لأن كل مثلين استحال في أحدهما أن يكون قديمًا، فيجب أن يستحيل أيضًا في الآخر، لأن من حق القديم أن يكون قديمًا لنفسه وما شاركه في جنسه، فيجب أن يكون قديمًا، فإذا ثبت كون كلامه من جنس كلامنا، وجب القضاء بحدوثه، لوحدة الجنس، فالكلام الإلهي من جنس الكلام الإلهي فلا يكون قديمًا. ويتكلم الله- تعالى- باعتباره بخلق الكلام في النبي أو في جبريل أو في مكان ما كالمصحف وأذن السامع و...

الرد على القائلين بقدم القرآن:

يقول القاضي عبد الجبار: إن القرآن يتقدم بعضه على بعض، فقولنا «الحمد لله» الهمزة متقدمة على اللام، واللام على الحاء، وهذا يتنافى مع القدم، لأن القديم هو ما لا يتقدمه غيره، ثم إن له أولاً وآخرًا، وسورًا وأجزاء، وهذا ما لا يثبت معه قدم.

الرد على القائلين بأن الكلام صفة أزلية قائمة بذاته:

قال بذلك الأشعرية، ويرد عليهم القاضي بأن إثبات ذلك محال، ولا طريق لإثباته، ويوجب تجويز المحال.

مثال: أن تجوزوا أن يكون في المحل معانٍ، ولا طريق لإثبات ذلك، وأن يكون مثلاً في بدن الميت حياة وقدرة و... إلا أنه لا طريق إلى شيء من ذلك، لأن المعنى إذا لم يُعلم ضرورة فالطريق إليه إما أن يكون:

أ - صفة صادرة عنه.

ب- أو حكمًا أوجبه هو.

وليس هاهنا صفة تصدر عن الكلام الذي أثبتموه، ولا حكم له يتوصل به إلى إثباته، فإثباته محال، والخوض فيه يفتح باب كل جهالة، ولا يمكن إثباته.

لماذا قال المعتزلة بخلق القرآن؟(١)

قال المعتزلة بخلق القرآن، لأن القول بالقدم يترتب عليه تعدد القدماء- حسب قولهم- وكذا القول بزيادة الصفات على الذات، يقتضي زيادة العدد من القدماء على القديم، مما يؤدي إلى ما قاله النصارى بتعدد الأقانيم، والذي قال بخلق القرآن بداية «الجعد بن درهم»، وكان في آخر دولة بني أمية، وكان مؤدبًا لآخر خلفائها «مروان ابن محمد»، وكان جهم بن صفوان تلميذًا له، قال عنه الذهبي على رغم كل ما تهم به، إنه يقول: بأن الله لا ينبغي أن يوصف بما يوصف به الخلق، لأن ذلك يعني تشبيهه، فلا يوصف الله بأنه كلم فلانًا أو صادق فلانًا، وإنما يوصف بالقدرة والوجود، وأنه محيي وأنه مميت...

---

(١) انظر: فلسفة المعتزلة، د. ألبير نصري نادر، ١/١١٠، ط دار نشر الثقافة. وانظر: موسوعة الفلسفة، د. الحفني، ١/٤٦١، ٤٦٢. والمحيط بالتكليف للقاضي عبد الجبار، ص١٧٢، ١٧٣. وشرح الفرذاذي لديوان الأصول، ص٦٩.

وهذا يبين أن الجعد والمعتزلة أرادوا تنزيه الله تعالى عن مشابهة الخلق، والبُعد عن قول النصارى بتعدد القدماء، لنهم اعتقدوا بأزلية الكلمة وهو عندهم المسيح، فأراد المعتزلة إبطال ذلك.

ولذلك أقام المعتزلة الحجج والبراهين لإبطال القوم بقدم القرآن الكريم.

رأي القائلين بالقِـدَم:

القائلون بقدم القرآن:

قال بذلك الحشوية، حتى إنهم قالوا بقدم القرآن المتلو في المحاريب والمكتوب في المصاحف.

وقال بذلك الكُلاَّبية فقالوا: هو معنى أزلي قائم بذاته تعالى.

وقال بذلك الأشاعرة الكلام صفة ذات قديمة وهو غير الله تعالى، وخلافه، وخلاف العلم، وليس لله تعالى إلا كلام واحد وهو الكلام النفسي.

ويرى ابن حزم: أن كلام الله حقيقة هو القديم، أما الصوت الملفوظ من القرآن، والمفهوم من ذلك الصوت، والمصحف، والمحفوظ في الصدور من القرآن فكل ذلك مخلوق.

والمضمون من كل ذلك، أن القائلين بالقدم اختلفوا في مقاصد واتفقوا في مقصد، ولنأخذ فرقة منهم هي- الأشاعرة- مثلاً فقد كان لها جدل طويل مع المعتزلة.

تقرير رأي الأشاعرة:

يرى الأشاعرة: أن الله تعالى متصف بصفة الكلام، وهي أزلية موجودة قائمة بذاته تعالى متعلقة بما يتعلق به العلم من الواجبات والمستحيلات والجائزات، لكن تعلق العلم تعلق كشف، فهذه الثلاثة منكشفة له تعالى بعلمه، وتعلق الكلام بها تعلق دلالة، بمعنى أنه لو كشف عنا الحجاب، وسمعنا صفة الكلام القائمة بذاته تعالى لفهمنا منها هذه الثلاثة.

والكلام يثبت لله كمالاً، وينفي عنه النقص، وكلامه تعالى القائم بذاته، ليس بحرف ولا صوت، منزه عن القدم والتأخر وعن الإعراب والبناء.

ويطلق الكلام على الصفة الإلهية القديمة القائمة بذاته تعالى، وهذا منزه عن الحدوث، ويطلق على اللفظ المنزل على رسول الله ق فهو بنسبته إلى صفة الكلام الإلهية هو قديم، أما بالنسبة للمقيد في الصحف ونقرأه فيقال عليه مجازًا قديم، لكن هي حادثة، ومع ذلك لا يجوز أن نقول ذلك إلا في مقام التعليم، لأن القرآن يُطلق مجازًا على الصفة القائمة بذاته تعالى، فربما يتوهم أن القرآن حادث، وأن الصفة القائمة بذاته حادثة، فمن أنكر أن ما بين دفتي المصحف من كلام الله يكفر.

وقال السحيمي: اتفق السلف على تحريم القول بخلق القرآن مرادًا به اللفظ الذي أُنزل على رسول الله ق إلا في مقام التعليم، وقد أمسك الإمام أحمد بن حنبل عن ذلك، ويؤخذ من صنيعه أنه لا يجوز لشخص أن يقول لمن يقصر فهمه عن التفرقة ما بين صفة الكلام القائمة بذاته تعالى، وبين الدالة على هذه الصفة، لا يجوز أن يقال له: إن المصحف حادث حتى لا يظن أن الصفة ذاتها حادثة.

أما كلام المعتزلة بأن الله تعالى لا يتصف بالكلام؛ لأن الكلام مكون من حروف وأصوات، ولا يصح اتصافه تعالى به، حتى لا يقوم الحادث بالقديم، ومعنى كونه متكلمًا، أي خالق للكلام في غيره، فهذا قول مردود، لأن الكلام النفسي ليس بصوت ولا حرف، وهو كلام حقيقة، فليكن كلام الله كذلك، ولا يعني ذلك المماثلة بين كلام الله النفسي وكلام الخلق، لأن كلامه تعالى قديم، وكلام الخلق حادث، وإنما المقصود التشبيه في أن كلاً منهما ليس بحرف ولا صوت وإن تباينا حقيقة(١).

---

(١) انظر: فتح المجيد للشيخ محمد نووي بن عمر الجاوي الشافعي، ص٣٣، ٣٤، ط الحلبي. وحاشية على أم البراهين للدسوقي، ص١١٣-١١٥، ط. الحلبي. وتقريب المراد ١٤٢/٢-١٤٣. والدرة الفاخرة لمولانا نور الدين أبي البركات عبد الرحمن الشيرازي (ت٨٩٨هـ) لوحة رقم ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧ مخطوط.

وهذا يجعلنا نخلص إلى أن صفة الكلام القائمة بذاته تعالى قديمة، وأن القرآن من كلام الله القديم، أما المكتوب المسموع المقروء في المصحف فاللفظ حادث لا الصفة القائمة بذاته تعالى.

والخلاف أن المعتزلة قالوا بحدوث الصفة يخلقها الله- تعالى- في الشجرة، في اللوح المحفوظ، فليس هو بذاته متصف بالكلام القديم، وإنما الحادث المخلوق في محل.

أما الأشاعرة فقالوا: الصفة قديمة، والقرآن كلامه القديم لكن الحروف المكتوب بها القرآن هي الحادثة.

أدلة الأشاعرة على قدم صفة الكلام:

بالطبع يتفق العقلاء على أن الكلام اللفظي حادث لا يقوم بذاته تعالى، ولا خلاف بين الأشاعرة والمعتزلة في ذلك، لكن الأشاعرة يثبتون له الكلام المنزه عن الصوت والحرف، والتقديم والتأخير، ألا وهو الكلام النفسي.

فالله تعالى وصف نفسه بالكلام، والمتكلم هو من قام به الكلام لا من أوجد الكلام- في محل آخر- لأن موجد الحركة لا يسمى متحركًا، ولأن الله- مثلاً- لا يُسمى مصوتًا لخلقه الأصوات.

ولو أنا سمعنا من يتكلم لقلنا عليه متكلم مع علمنا أن الله هو الذي خلق الكلام، وذلك لأنه لا يوصف بأنه متكلم إلا من صدر منه الكلام لا من أوجده في محل.

يتضح من ذلك أن الله سبحانه متصف بالكلام ويلزم أن يكون الكلام قائمًا به تعالى لا مخلوقًا في محل آخر، ولا يصح أن يقوم به تعالى الكلام اللفظي لحدوثه، إذ هو حروف وأصوات مسموعة، وله بداية ونهاية، وهذا الحادث لا يقوم بالقديم، إذًا يثبت أن صفة الكلام القائمة بذاته تعالى هي الكلام النفسي لا اللفظي «الحسي».

وغلط المعتزلة أنهم لم يثبتوا إلا نوعًا واحدًا من الكلام وهو اللفظي، ومحال أن يقوم هذا النوع بذاته تعالى.

ولهذا يجب أن نفرق بين ما يلي:

١- الكلام باعتباره مؤلفًا من عبارات وألفاظ وأصوات، وهذا ما يمكن أن نسمعه ونلفظه ونقرأه، وهو الحادث.

٢- الكلام النفسي وهو الذي يدور في الخلد، وتدل عليه العبارات والإشارة ونحو ذلك.

ويستدل على وجود هذا الكلام أن العاقل إذا أمر عبده بأمر وجد في نفسه اقتضاء الطاعة منه وجدانًا ضروريًا.

ويستدل على أن الكلام النفسي خلاف اللفظي، أن اللفظي يعدم بعد النطق به، ويتلاشى من الأسماع بعد السماع، لكن دلالته تستمر.

يقول الجويني في الإرشاد: «إن اللفظة تنصرم مع استمرار وجدان الاقتضاء في النفس والماضي لا يراد بل يتلهف عليه، وعلى اضطرار نعلم ما نجده بعد انقضاء اللفظ ليس تلهفًا على منفض، ومما يوضح ذلك أن اللفظة ترجمة عما في الضمير، وهذا مما تقضي به العقول، وليست اللفظة ترجمة عن إرادة جعلها على صفة، والفرق بين الكلام اللفظي وبين الكلام النفسي، أن اللفظي حادث مكون من حروف وأصوات، والنفسي قديم، وهذا كما أن العالم الذي نراه حادث، والخالق الذي أحدثه قديم».

والغزالي يرد على المعتزلة ويبين لنا الفارق بين اللفظي والحسي فيقول: «وإذا قلنا إنه مكتوب في المصحف أعني صفةَ القديم سبحانه، لم يلزم منه أن يكون القديم في المصحف، كما أن إذا قلنا النار مكتوبة في الكتاب، لم يلزم منه أن يكون ذات النار حالة فيه، إذ لو حلت فيه لاحترق»(١).

---

(١) انظر في أدلة الأشاعرة: الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي، ص١٢٤، ط الحلبي. والإرشاد للجويني ص١٠٧، ١١٠، ط مؤسسة الكتب الثقافية. والمقاصد لسعد الدين التفتازاني ٣/١٠٨-١٠٩. والمواقف ٨/١٠٣-١٠٧.

والماتريدية كذلك مع الأشاعرة في كلام الله تعالى أنه صفة أزلية ليست من جنس الحروف والأصوات، وهي منافية للسكوت والآفة، وتسمى العبارات دالة عليها على معنى أنها عبارات عن كلامه الأزلي القائم بذاته، وهو المعني بقولنا القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق(١).

أدلة الأشاعرة على نفي خلق القرآن:

للإمام الأشعري في كتابه «الإبانة» باب مختص لإثبات ذلك، ويستدل من القرآن الكريم بقول الله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ (٢)، وأمره تعالى هو كلامه، وقال ﷻ : ﴿ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ (٣).

فالخلق هو جميع ما خلق داخل فيه، لأن الكلام إذا كان لفظه عامًا فحقيقته كذلك، ولا يجوز أن نزيل الكلام عن حقيقته دون حجة ولا برهان، فلما قال تعالى: «ألا له الخلق» جمع كل ما خلق، ولما قال «والأمر» فقد ذكر الأمر في غير ما خلق، فدل على أن أمر الله غير مخلوق.

وبما أن في الآية الأولى ثبت أن الأمر هو كلمة الله، وفي الثانية ثبت أن الأمر غير مخلوق. إذن كلام الله غير مخلوق.

ويقول الباقلاني في «التمهيد»: «والذي يدل على نفي خلق القرآن من القرآن قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٤)، فلو كان القرآن مخلوقًا لكان مخلوقًا بقول آخر، وذلك يوجب ألاَّ يوجد من الله فعل أصلاً إذا كان لابد أن يوجد مثله أفعال هي أقاويل لا غاية لها، وذلك محال باتفاق منا ومنهم» أي المعتزلة.

---

(١) التمهيد للنسفي، ص١٧٣-١٧٥، تحقيق: حبيب الله حسن أحمد، ط دار الطباعة المحمدية.

(٢) سورة الروم، من الآية ٢٥.

(٣) سورة الأعراف، من الآية ٥٤.

(٤) سورة النحل، الآية ٤٠.

ولو كان كلام الله سبحانه مخلوقًا وليس من جنس الأجسام عندنا وعندهم لوجب أن يكون كلام الله عرضًا، والعرض لا يبقى، فوجب أن يكون فانيًا دومًا من حال حدوثه، وعليه فلا يكون الباري سبحانه آمرًا ناهيًا في وقتنا هذا بشيء، ولا واعدًا ومتوعدًا بشيء.

والإجماع يقول بخلاف ذلك، إن أمر الله ونهيه، ووعدَه ووعيدَه في هذا الوقت وبعده، ومتكلم بأمره ونهيه لخلقه، إذًا هو متكلم، ولا يجوز أن يكون كلامه عرضًا لعدم بقاء الأعراض زمانين، وعليه فكلامه قديم لا يكون مخلوقًا...

ولو كان كلامه مخلوقًا من جنس كلام المخلوقين، لاستطاع المعارضون أن يأتوا بمثله، واستحالة ذلك دلالة على عدم خلقه، ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (١).

وقد كذَّب الله الذين قالوا: ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ . سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ (٢)(٣).

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٨.

(٢) سورة المدثر، الآيتان ٢٥، ٢٦.

(٣) انظر: التمهيد للباقلاني ص٢٣٧، ٢٣٩، ط المكتبة الشرقية- بيروت. والإبانة عن أصول الديانة للأشعري، ص١٩-٢٠، ط مكتبة محمد علي صبيح. وكتاب اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع للأشعري، د. حمودة غرابة، ص٣٣ وما بعدها، ط المكتبة الأزهرية للتراث.

خاتمــــة

بعد طول الصراع بين الآراء في تقرير هذه المسألة، وكل فريق يذهب مذهبه، ويناصر رأيه، أخلص على أن وراء كل باب عقبة وذلك لأن:

١- **القائلين بقِدَم القرآن:** قد اضطروا إلى القول بالكلام النفسي، وهذا لا دليل عليه، إنما هو إبداع عقل جدلي لا غير، ثم إن هذه المسألة تخرج عما كان عليه الدين إبان عهد صاحب هذا الدين، فهي مما أنتجه اليهود في البيئة الإسلامية، إنها فتنة لا تفيد الدين شيئًا، بل تضره.

وهؤلاء تقف وراءهم عقبة تعسير الكلام، فلو كان القرآن كلام الله القديم، وقد جرى فيه نسخ وتبديل وتقرير وإحكام وتشابه، وكلام الله القديم لا يجوز أن يجري فيه ذلك، لأن كل ذلك من أعراض الحدوث.

٢- **أما القائلون بحدوث القرآن:** فهؤلاء تجرؤوا على صفة الكلام الإلهي فأنكروا أن يكون الله متكلمًا بذاته، وزعموا أن الله يخلق الكلام كما خلقه في الشجرة وفي النار وفي سواهما، وهذا خلط لغوي ففاعل الشيء بذاته يغاير خالقه في سواه.

ثم إذا كان عيب على الكفار عبادة من لا يتكلم ولا يسمع، فكيف يرضون لله تعالى عدم الكلام، وقد وصف ذاته ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ (١) ورد عليهم ﴿ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ (٢).

والحاصـــل:

- أن هذه مسائل فتنة لا نفع فيها.
- وأنها مسائل دُست على البيئة الإسلامية.
- وأنها مسائل كانت وسيلة الساسة لكسب العامة أو لإظهار الذات.

---

(١) سورة النساء، من الآية ١٦٤.

(٢) سورة البقرة، من الآية ١٤٠.

النتيجـــــة:

كل ذلك من باطل الكلام، ولقد سكت عنها صاحب هذا الدين، وسكت الصحابة أيضًا، فلماذا نجدد في ساحة الإسلام فتنًا نسأل الله لأ أن يميتها، وإننا إذ نناقش هذه المسألة من جذورها نريد إيضاح أنها كانت قصدًا لهدم جماعة المسلمين، وشغلهم بفاسد القول عن صالحه.

لذا أذهب برضًا وقناعةٍ ويقين إلى أن التوقف والسكوت عن هذه المسائل أسلم وأن الكلام صفة من صفات الله لأ.

ويشبه هذا ما قرره ابن عباس ب قال: «تأويلها تمريرها»، أي أن هذه القاعدة حقة يلزمنا الالتزام بها إذا اختلطت الأمور في المسائل الخلافية. والله أعلى وأعلم. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

المراجـــع

١- الإبانة عن أصول الدين للأشعري، ط مكتبة محمد علي صبيح.

٢- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة لابن بطة العكبري (ت٣٨٧هـ)، ط دار الراية بالرياض، ١٤١٨هـ، ت: د. يوسف بن عبد الله الوابل.

٣- الإرشاد للجويني، ط مؤسسة الكتب الثقافية.

٤- الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي، ط الحلبي.

٥- البداية والنهاية لأبي الفداء إسماعيل بن كثير، طبعة دار هجر للطباعة والنشر، الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي.

٦- تاريخ الأمم والملوك للإمام الطبري، ط مصر.

٧- تاريخ الجدل، محمد أبو زهرة، ط دار الفكر، الأولى.

٨- تقريب المرام، عبد القادر الشنترجي، ط المطبعة الأميرية.

٩- تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، ط مجلس دائرة المعارف النظامية بالهندي، الأولى، ١٣٢٥هـ، وطبعة دار إحياء التراث العربي- بيروت- لبنان، الثانية ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

١٠- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ق وسننه وأيامه لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، ط دار طوق النجاة، الأولى، ١٤٢هـ، ت: محمد زهير بن ناصر الناصر.

١١- حاشية على أم البراهين للدسوقي، ط الحلبي.

١٢- الدرة الفاخرة لمولانا نور الدين أبي البركات عبد الرحمن الشيرازي (ت٨٩٨هـ) مخطوط.

١٣- رسالة الحيدة نقلاً عن: تاريخ الجدل، محمد أبو زهرة، ط دار الفكر.

١٤- سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي، ط مؤسسة الرسالة- بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١٥- شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية لمحمد خليل هراس، ط الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

١٦- شرح الرذاذي لديوان الأصول، بدون.

١٧- شرح قصيدة ابن القيم لأحمد بن إبراهيم بن عيسى، ط المكتب الإسلامي- بيروت، ١٤٠٦هـ، ت: زهير الشاويش.

١٨- شرح المقاصد للتفتازاني، ط دار الكتب العلمية، الأولى، تقديم: إبراهيم شمس الدين.

١٩- شرح المواقف للإيجي، ط دار الكتب العلمية- بيروت، الأولى.

٢٠- صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج، ط دار التراث العربي- بيروت، ت: محمد فؤاد عبد الباقي.

٢١- صون المنطق والكلام للسيوطي، ط دار إحياء التراث، ت: د. علي سامي النشار و د. سعاد علي عبد الرازق.

٢٢- طبقات الحنابلة لأبي الحسن محمد بن أبي يعلى، ط السنة المحمدية- مصر، الأولى.

٢٣- العبر في خبر من غبر للإمام الذهبي، طبعة دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، الأولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٢٤- فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، ط المكتبة السلفية، الثالثة، ١٤٠٧هـ، تحقيق: ابن باز وآخرين.

٢٥- فتح المجيد للشيخ محمد نووي بن عمر الجاوي الشافعي، ط الحلبي.

٢٦- الفرق بين الفرق للبغدادي، ط دار الآفاق الجديدة- بيروت، الثانية، ١٩٧٧م.

٢٧- فلسفة المتكلمين، هاري أ. ولفسون، ط هيئة الكتاب

٢٨- فلسفة المعتزلة، د. ألبير نصري نادر، ط دار نشر الثقافة.

٢٩- الكامل في التاريخ لابن الأثير، ط مصر.

٣٠- كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري، ط بولاق، الأولى، ١٢٧٥هـ.

٣١- كتاب الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن للإمام عبد العزيز بن يحيى الكناني، بدون.

٣٢- كتاب اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع للأشعري، د. حمودة غرابة، ط المكتبة الأزهرية للتراث.

٣٣- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم جار الله الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، طبعة مكتبة مصر، الأولى، ضبط: يوسف الحمادي.

٣٤- لمعة الاعتقاد لابن قدامة المقدسي، الناشر: المملكة العربية السعودية- وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

٣٥- مجموع الفتاوى لابن تيمية، ط دار الرحمة.

٣٦- المحيط بالتكليف للقاضي عبد الجبار، ط الدار المصرية للتأليف والترجمة، تحقيق: عمر السيد عزمي، ومراجعة: د. أحمد الأهواني.

٣٧- مذكرة التوحيد لعبد الرزاق عفيفي، ط وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف- المملكة العربية السعودية، الأولى، ١٤٢٠هـ.

٣٨- مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله ق أهل الجاهلية لأبي المعالي محمود شكري الألوسي، ط سنة ١٤٢٢هـ، الأولى.

٣٩- مقالات الإسلاميين للأشعري، ط النهضة المصرية، ١٩٥٤م، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد.

٤٠- منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات لمحمد الأمين الشنقيطي، ط الدار السلفية- الكويت، ١٤٠٤هـ، الرابعة، ت: عطية محمد سالم.

٤١- المنية والأمل للقاضي عبد الجبار، جمع: ابن المرتضى، ط دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥م، ت: عصام الدين محمد علي.

٤٢- موسوعة الفلسفة والفلاسفة، للدكتور عبد المنعم الحفني، ط مدبولي، الأولى.

٤٣- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب، إشراف: د. مانع حماد الجهني، الناشر: دار الدعوة- السعودية.

٤٤- ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي (ت٧٤٨هـ)، ط دار الحرم للتراث، ت: علي محمد البجاوي، الناشر: دار الفكر العربي، ١٤٠٦هـ.

٤٥- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، د. علي سامي النشار، ط دار المعارف- الإسكندرية.

* * *